المرحلة الرابعة: ٢٠٠٠ ـ ١٦٠٠

الموجات السامية والمد الشمالي

«طوال الألف الثاني، تدفقت هذه الموجات البشرية الكبيرة الآخذة في الاتساع، على أوراسيا (أوروبا وآسيا) وبلغت النيل والهندوس. وحلت كوارث على مهاد الحضارة القديمة من غير أن تزيلها: بلاد ما بين النهرين، كنعان ومصر. سوف تقاوم العواصم القديمة خلال ألف وخمسماية سنة وكأنها سدود، تارة تغمرها المياه وطوراً تظهر من جديد، بينما تسيل على صخورها موجات مد المهاجرين أو جزرهم.

ومنذ ذلك التاريخ لم يعد الشرق القديم المركز الوحيد للتاريخ. فقد بدأت أوروبا الجنوبية تكشف لنا عن شعوبها المتنقلة».

(موريه، تاريخ الشرق)

A. الموجة السامية الرابعة عند تخوم الهلال الخصيب.

العبرانيون والآراميون الرحل

I. العبرانيون والاراميون الرحل . ولادة شعب اسرائيل العتيد

في الوقت الذي كان فيه الأمير المصري سنوهت حوالي العام ٢٠٠٠ يحث الخطى متجهاً نحو سورية الشمالية للاقامة في ريزينو على حدود بابل،كان زعيم قبيلة بدوية صغير من أور في بلاد ما بين النهرين يدعى ابراهيم وقع اختياره على بلاد كنعان،ينتقل في اتجاه معاكس ليقيم عند حدود مصر.

إن هذين الحدثين المتزامنين لا علاقة بينهما بالطبع،غير أنهما يدلان على أنه وفي الوقت الذي كانت فيه أمبراطوريتا النيل والفرات تتنافسان للسيطرة على الممر السوري الفلسطيني، كان هذا الممر باستمرار مسرح مساومات ومناورات دولية حثيثة ناهيك بأنه كان محط أنظار شعوب متنقلة أو أنبياء ملهمين أو زعماء طامحين يرغبون في اقتطاع جزء منه كمنطقة تخصهم.

إن المطامع المتضاربة للقوتين الكبيرتين المجاورتين، ومؤامرات عملائهما وتنافس الملوك الصغار والزعماء المحليين وانتهازيتهم أشاعت الخلل في النظام،والفوضى في المناطق السورية من جديد، مما جذب المجموعات المتنقلة عند تخوم الصحراء نحو هذه البلدان المقسمة والمختلفة. فراحت شعوب تشكل نواة موجة توسع سامية ـ صحراوية لاحقة تتحرك عند حدود سورية وبلاد ما بين النهرين، تجذبها خيرات البلاد الحضرية والمزروعة وخصبها.

ومن جهة أخرى،ومن طرف آخر من العالم من سهول أوراسيا الباردة،جاءت موجات مجتاحين جدد من الشعوب البدائية الهاربة من قسوة المناخ الشمالي،متدفقة في اتجاه الجنوب نحو الهلال الخصيب ومناطقه المشمسة. وكان قد سبقهم الى تلك المناطق «أبناء حث» أو الحثيون الأناضوليون الذين استقروا، كما رأينا، في قلب فلسطين نفسه.

١ ـ الموجة السامية الرابعة تتهيأ في الصحراء : أخلامو (أراميون) وخابيرو (عبرانيون)

بالرغم من تحول الهلال الخصيب الى السامية تماماً،حوالي العام ٢٠٠٠ غير أنه لم ينجُ من غارات الساميين البدو الذين ما يزالون في السهوب. وكما في السابق استمر هؤلاء في مهاجمتهم للحضر والبدو القدماء المتحضرين كلما ضعفت مقاومة هؤلاء الحضر.

وفي حين كان العالم الشرقي الحضري، هذا الشرق السامي ـ الحامي قد استقر عرقياً ولغوياً في ذلك العصر وأخذ يتطور بالأشكال والأدوار التي تحددها له الجغرافية والتاريخ، كانت الصحراء السورية ـ العربية التي فرغت من سكانها حوالي العام ٢٤٠٠ برحيل آخر موجة توسع سامية-أمورية قد بدأت تفيض من جديد. فشرعت مجموعات من الرحل مخلدة عادات أجدادها القديمة تتحرك بين الفرات والنيل، وتحوم حول الأراضي المزروعة والسهوب وتهاجم السكان المزارعين. وظهرت هذه الموجة الصحراوية العام ٢٠٠٠ على حدود بلاد ما بين النهرين وسورية وفلسطين تحت أسماء قبائل مختلفة أهمها أخلامو (الآراميون العتيدون) وخابيرو (العبرانيون العتيدون) وخاباتو (في منطقة لبنان)، وسوتو وغيرها.

وهذه الشعوب الرُحّل (ومنها فرع ابراهيم الذي سينفصل عنها ليعمل بمفرده) شكلت طليعة أو بالأصح نواة وإطار موجة التوسع السامية الجديدة التي ستندفع لاحقاً باتجاه الهلال الخصيب. وهذه الموجة الرابعة التي تتهيأ في الصحراء سوف تقلق وطوال قرون عديدة،الشعوب والبلدان الحضرية. إلا أن الغزوات الآتية من الشمال والتي ستتدفق موجاتها عما قريب في اتجاه الهلال الخصيب، أعاقت انتشار الموجة الصحراوية في البلدان المزروعة فلم يُتح للساميين الاستقرار في هذا القطاع إلا بعد ذلك التاريخ بقرون عدّة.

لقد شكل العبرانيون ـ الاسرائيليون في كنعان ـ فلسطين والآراميون في آرام ـ سورية والخالدو أو الكلدان في بابل ـ كلده العناصر المستقرة من تلك الموجة السامية ـ الصحراوية.

أخلامو وخابيرو، هما المجموعتان الأهم والأشهر من الساميين الرُحّل وإن انتشارهما لاحقاً في بلاد الحضر سيكون له نتائج بارزة على تطور الشعوب الشرقية ومصائرها التاريخية. فمن الأخلامو سيخرج الآراميون التاريخيون الذين ستوحد

لغتهم مختلف لغات الهلال الخصيب. وأما من مجموعة خابيرو فسوف ينفصل العبرانيون،وهم الأرومة الأصلية للآباء التوراتيين وشعب اسرائيل والمسيح المخلص والنبي محمدﷺ.

إن اسم أخلامو الأصلي قد يعني «المرافق»، واسم آرامو أو آراميين الذي خلفه لاحقاً «أهل البلاد العالية» أو «الجبليين». ويبدو أن الأرامو أو الآراميين قد تفوقوا في وقت من الأوقات على سائر مجموعات الأخلامو فرجحوا اسمهم عليها.

وأما اسم خابيرو الذي استبدل لاحقاً بَاسم عبراني، من هبر وهو إسم قبيلة أو زعيم قبيلة خابيرو. كما أن تسمية الاسرائيليين لاحقاً التي كانت في البدء تطلق على قسم من العبرانيين سوف تحل تقريباً محل اسمهم. إن كلمة خابيرو تعني المرتبط أو المتعاقد أي المرتزق أو الشريك أو الحليف وهي تماثل كلمة «بربري» في العالم اليوناني ـ الروماني. ويبدو أنها تدل أيضاً، على لقب إقطاعي مرتبط ببعض الأشخاص: «فلان، الخابيرو».

وأما كلمة عبراني فقد تعني «ابن هبر» سليل نوح،كما تعني بشكل أعم وعلى الأرجح «رحالاً، متنقلاً» التي تقابلها كلمة «عربي» بمعنى «بدوي». وأما اسم اسرائيل فهو الاسم الذي حمله يعقوب حفيد ابراهيم كما سنراه لاحقاً.

وعلى امتداد الألف الثاني ظل الخابيرو ـ العبرانيون والأخلامو ـ الآراميون ومعهم الساميون البدو الأخرون (خاباتو، سوتو، قزقا، الخ...) يخربون باستمرار كل بلاد الهلال الخصيب. وحوالي العام ٢٠٠٠ انضوى الخابيرو وغيرهم من البرابرة كجنود مرتزقة في جيوش ملوك لارسا وأسور. وأما في عهد حمورابي فتذكر محفوظات الرسائل في ماري على الفرات شكاوى من عناصر نهّابة وبربرية من بينها الخابيرو. ثم وفي تاريخ لاحق بعد العام ١٤٠٠ كشفت رسائل تل العمارنة التي بعث بها كل الأمراء التابعين لمصر أنهم يشكون من هؤلاء البدو أنفسهم.

لقد تقاسم الأخلامو ـ الآراميون والخابيرو ـ العبرانيون على ما يبدو مناطق العمليات والمرور. فكان مجال تنقل الآراميين قطاع الفرات وكان مركزهم الأساسي في منطقة حران حيث توقف ابراهيم وهو في طريقه الى الجنوب. وأما الخابيرو ـ العبرانيون فقد كان قطاع بداوتهم الأساسي على الأرجح الحدود الفلسطينية. وقد سيطرت إحدى عشائرهم وهي عشيرة هبر على الآخرين في هذه المنطقة ولم تلبث أن أعطت اسمها الى خابيرو بلاد كنعان الذين أصبحوا العبرانيين التاريخيين.

٢ ـ ابراهيم، المرسل الأول من قبل الإله الواحد، يغادر بلاد ما بين النهرين الى «أرض الميعاد»

لقد هاجر ابراهيم، بحسب سفر التكوين، أو بالأصح أبرام بحسب ما كان يدعى في ذلك العصر،وقبيلته السامية من أور الى كنعان في عهد «ملك سينيار» (سومر = بابل) وكان يدعى أمرافل (حمورابي).

وبالاضافة الى ذلك فنحن نعلم أنه،وأيام حكم هذا الملك أمرافل (حمورابي) الذي وحد وادي الفرات (حوالي ٢٠٠٠) انتقلت الهيمنة السياسية والاجتماعية في منطقة أور السومرية الى الساميين،وأنه دعماً لهذا التفوق منحت امتيازات ووزعت أراض على السكان الساميين في تلك المنطقة.

من جهة أخرى فإن قرار أبرام بترك وطنه الأصلي أي منطقة أور الغنية حيث صار العرق الذي هو منه متفوقاً،قاصداً أرضاً غريبة وفقيرة نوعاً ما، يتعارض بغرابة مع عادات المهاجرين الساميين الذين لا يتركون أرضاً إلا لينتقلوا الى أرض أفضل منها.

لكن تصميم أبرام على الهجرة كانت له دوافع أخرى: فهو نتيجة مأساة دينية. وبالفعل فإن التوراة تعلمنا أنه كان وراء ذلك الانتقال وعد وأمر من الله الذي وللمرة الأولى تنازل واتصل بالبشر مباشرة. فقد وعد الله أبرام بأن يجعل من ذريته أمة عظيمة، وأمره في الوقت نفسه بأن يترك بلاده ويتوجه للسكن في كنعان.

وبناء على هذا الوعد الالهي المقطوع لهذا المواطن المغمور في أور،فإن أدياناً إلهية ثلاثة أرست قواعدها: هي اليهودية والمسيحية والاسلام.

بدأ أبرام وهو أول مرسل من قبل يهوه، الإله الواحد العتيد،كما كان فيما بعد محمد رسول اللهﷺ بإقناع أقرب الناس اليه أي والده الشيخ تارح العجوز وزوجته ساره. فغادر أور حيث كانت عبادة الإله القمر مزدهرة، يصحبه أهله وعشيرته الصغيرة متوجهاً شمالاً أولاً على طول مجرى الفرات وتوقف في حران كمحطة أولى وهي مدينة تقع على أحد روافد نهر الفرات ويعبد فيها أيضاً الإله القمر. وفي حران توفي الشيخ تارح وصار أبرام زعيم العشيرة الصغيرة المتنقلة. فتابع هو وقبيلته التقدم نحو الجنوب حتى وصلوا الى أبواب كنعان.

ونصبت القبيلة خيامها قرب سيشيم حيث تلقى ابراهيم من الله تأكيداً بالوعد المقطوع له وأضاف الله تعالى موضحاً: «سأعطي هذا البلد لك ولذريتك». فصارت كنعان عندها «أرض الميعاد». إلا أن الكنعانيين المحليين كانوا مسيطرين جيداً على البلاد ولهم فيها قلاع حصينة. وكي ينجح العبرانيون في استيطان تلك المنطقة كان لا بد أن ينتظروا ما يقارب سبعة أو ثمانية قرون.

بدأ البرهمانيون (قبيلة ابراهيم) المتنقلون في الجوار يعانون من الجوع فنزلوا الى مصر «حيث أقاموا الفترة الكافية لجمع قطعان وفضة وذهب». وفي ذلك العصر (١٩٠٠) تذكر، كما رأينا، الوثائق المصرية وصول زعيم قبيلة سامية صغيرة هو إبيشا (ربما ابرام نفسه) الى بني حسن في الدلتا الشرقية ومعه ٣٧ من أفراد عشيرته بينهم نساء وأطفال وهم «يسوقون أمامهم غزلاناً وحميراً» ويحملون هدايا الى الحكام المحليين.

٣ ـ البرهمانيون والفينيقيون يتقاتلون في النقب

لم يثر وصول أبرام وقبيلته الخابيرو الى كنعان بادىء الأمر أي رد فعل من جانب السكان المحليين الحضر. فأولئك العبرانيون الأولون وهم بعد ضعيفو الثقة بأنفسهم كانوا يتحاشون المشاكل التي يمكن أن تؤدي الى تخاصمهم مع الكنعانيين.

لكن الأمر لم يكن كذلك في صحراء النقب في جنوب فلسطين لدى انتقال البرهمانيين الى مصر. ففي تلك المنطقة المجدبة التي هي موضوع نزاع اليوم بين السكان العرب الأصيلين والإسرائيليين المهاجرين، تذكر نصوص رأس شمرا أن البرهمانيين اصطدموا بعنف مع الفينيقيين الأولين الذين كانوا ما برحوا هناك. ولنذكر هنا أنه ومن تلك الربوع والضفاف الشمالية للبحر الأحمر انطلق أجداد الفينيقيين وأخوتهم الكنعانيون حوالي العام ٢٩٠٠ ق.م. نحو شاطىء البحر المتوسط. وقد بقي النقب تحت إشراف كنعاني صيدا، وكان ما يزال لهم في ذلك العصر جيش فينيقي، تشيد بمآثره نصوص رأس شمرا، يسهر على تجارة الفينيقيين في مفترق الطرق التجارية هذا.

إن إلتقاء البرهمانيين مع فينيقيي النقب أثار منافسات وصراعات مسلحة بين المجموعتين. وتروي إحدى القصائد الملحمية المكتشفة في رأس شمرا صراع كيريت ملك صيدا ضد مجتاحين على رأسهم تارح والد ابراهيم. لكن «الإله الواحد» لا يبدو

معنياً بهذا الصراع إذ وبحسب القصيدة نفسها يدور الصراع بين عبدة الشمس (جماعة كيريت) وعبدة القمر (جماعة ابراهيم).

إنهزم الصيدونيون وانكفأوا الى قواعدهم على الشاطىء الفلسطيني. وأما جيش العدو، وبحسب مؤلف القصيدة الفينيقية، فكان يضم «ثلاثة ملايين مقاتل فضلاً عن أقوام من البدو بأعداد لا تحصى اشتركوا في القتال جميعاً». وبالطبع لقد بولغ بهذا العدد الخيالي من الأعداء عمداً لتبرير هزيمة الفينيقيين.

وبرغم خسارة هذه المعركة ظل التفوق بيد الفينيقيين. فالبرهمانيون الذين أرادوا من هذا النصر الوصول الى شاطىء المتوسط لم يفلحوا في ذلك. فاضطروا الى نزع خيامهم ومغادرة النقب الذي ظل تحت إشراف الفينيقيين لما يقارب الألف سنة بعد هذه المواجهة.

وندرك من هذه الأسطورة الفينيقية،حدوث الغزو التاريخي من قبل العبرانيين لكنعان الجنوبية (فلسطين المقبلة) حوالي العام ٢٠٠٠ ق.م.

٤ ـ إسحق بن ابراهيم ووالد يعقوب أو إسرائيل

وبعد إقامة قصيرة في مصر عاد البرهمانيون الى كنعان. وبعد رؤيا جديدة أدت الى تحالف بين الله وأبرام: مقابل وعد من الله بأن يؤمن له حماية إلهية خاصة قبل هذا الشيخ بأن يغير اسمه وأن يُختن هو وأفراد قبيلته. ومنذ ذلك الوقت أصبح أبرام إبراهيم ومعناه «أب العديد من البشر». فالاسم في ذلك العصر لم يكن يرمي فقط للإشارة الى الشخص بل أيضاً «للخلق والحث». وأما الختان وهو ذكرى أو رمز الأضاحي البشرية القديمة والذي كان مألوفاً في مصر،إذ ربما اقتبسه ابراهيم منها فهو: «نوع من احتفال بدونه لا يمكن الفرد أن يكون من العرق (الشعب) المختار»[1].

مقابل هذين الشرطين ومكافأة له أنعم الله على ابراهيم وزوجته ساره، برغم كبر سنهما، بولد هو إسحق الذي سيكون والد يعقوب أو إسرائيل.

وبدءاً من هذا التاريخ (بعد ١٩٠٠) أصبح البرهمانيون-الخابيرو العبرانيين التاريخيين (بدو بلاد كنعان) ذلك أن البداوة ستظل الى أمد طويل مقبل،السمة الرئيسية لهذه القبيلة التوراتية الأولى.

1 Daniel Rops, *Histoire Sainte, le Peuple de la Bible* p. 27.

أ ـ إسماعيل بن ابراهيم، أبو العرب العتيدين

كان لإبراهيم، من سرية مصرية هي الأمة هاجر، ولد آخر يدعى اسماعيل، ولم يكن يحق لولده هذا أن يحصل على حقوق الوريث بحسب القانون السومري ـ البابلي فصار هذا الإبن السفاح لابراهيم يتنقل في الصحراء صوب الشرق. وسوف يصبح جد العرب اللاحقين. وإذا كانت بنوة اسماعيل غير الشرعية حرمت ذريته من الحصول المباشر على الوعد الالهي الذي قطع لابراهيم شأنهم في هذا شأن أنسبائهم أولاد إسحق ويعقوب، إلا أن هذه الحالة لم تمنع فيما بعد عن ذرية إسماعيل من أن يتم اختيارهم بدورهم كي يكونوا مؤتمنين وناشرين لكلمة الله المنزلة في القرآن الكريم ولكي يصبحوا هم أيضاً، بفضل النعمة الالهية الممنوحة الى النبي العربي محمدﷺ، شعباً مختاراً وأمة عظيمة.

ب ـ يعقوب أو إسرائيل جد الأثني عشر قبيلة.

كان إسحق الابن الشرعي لابراهيم «صورة شاحبة عن أبيه»، إذ كانت شخصيته باهتة قياساً الى سواه من آباء التوراة. وكان العبرانيون في أيامه يخصصون بعض نشاطهم للزراعة مما يظهر تبدلاً عميقاً في حياتهم الاقتصادية.

رزق إسحق بولدين توأمين: عيسو ويعقوب. عيسو كان أصهبَ،قوي البنية وكث الشعر وكان صياداً وقاطع طرق يعيش حياة بداوة كاملة أما ذريته فكانت مغمورة. بينما كان يعقوب الابن المدلل من أمه رفقة، وكان هادىء الطبع محباً للحياة العائلية، نصف بدوي. وكان يقود قطعانه ويزرع حول خيامه القمح والخضار. وبالتواطؤ مع أمه نجح يعقوب بحيلة،بانتزاع حق البكورية الذي يعود أصلاً الى عيسو الذي ما كان يستحقه، بسبب طبعه وبخاصة لأنه أدخل دماً غريباً على عرق قبيلته عندما تزوج من بنات حثيات وكنعانيات. هكذا إذن استمرت ذرية ابراهيم صافية بيعقوب.

وبما أنه وريث شرعي لرسالة جده إبراهيم، كان ليعقوب أيضاً رؤيا. على أثر «صراع روحي» مع الله أو قوى القدر نال تأكيداً بالوعد المقطوع لابراهيم وحظي أيضاً باسم إسرائيل ومعناه «الله نضال» لأنه ناضل ضد الله والبشر. وكما أن ابراهيم حصل على إسمه الجديد إثر تحالفه مع الله،كذلك يعقوب فإنه منذ «نضاله» أصبح إسرائيل،وهو إسم سوف يعني بعد ذلك التاريخ الزعيم الذي إختاره الله. وأما عرقه

الملقب «أبناء إسرائيل» فقد أصبح مجموعة عرقية خاصة متميزة عن العبرانيين الآخرين أو البرهمانيين - الخابيرو.

هكذا وبدءاً من يعقوب حفيد إبراهيم فإن نص التوراة يميز في عشيرة البرهمانيين-الخابيرو القدامى: «عبرانيين» و«إسرائيليين». وكما أن العبرانيين هم جزء من الخابيرو هكذا الاسرائيليون ذرية يعقوب أو إسرائيل هم جزء من العبرانيين، الجزء الشرعي، الشعب المختار المدعو وحده للمصير الكبير الموعود به عرقه.

وبزواج يعقوب من إبنتي عم له من حران هما راحيل وليا ومن خادماتهما فإنه رزق ١٢ إبناً كانوا أصل قبائل اسرائيل. وقد كان يوسف إبن راحيل إبنه المفضل بين كل أبنائه. فحسده أخوته على هذه المحبة وعلى المميزات الطبيعية التي كان يتمتع بها، وقرروا التخلص منه ببيعه كرقيق الى قافلة من الإسماعيليين (العرب العتيدين) كانت متجهة الى مصر، حيث حصل على منصب وزير أعلى لأحد الفراعنة الآسيويين أو الهكسوس (نحو ١٧٠٠).

٥ - عداء الإسرائيليين والكنعانيين المحليين.

رأينا سابقاً كيف أن البرهمانيين الأول برغم انتصارهم على الفينيقيين في النقب فإنهم عجزوا عن الوصول الى ساحل البحر المتوسط. وبعد عبراني ابراهيم، وهم على بداوة كلية، راح الاسرائيليون أبناء يعقوب المتنقلون على حدود كنعان يتدربون لدى اتصالهم بالكنعانيين والأموريين والحثيين المحليين على أعمال الزراعة. لكن علاقات هؤلاء الإسرائيليين الرحل بالسكان الأصليين لم تكن ودية. وكان أبناء يعقوب أو إسرائيل الفخورون بتحدرهم المباشر والشرعي الذي يربطهم بابراهيم الملهم، يتباهون بشخصيتهم بتعال مما عزلهم عن سواهم. لذا ظلوا غرباء وفي عداوة دائمة مع الكنعانيين سادة تلك البلاد وأصحابها منذ أكثر من ألف سنة. ناهيك بأنها ليست مصادفة ان تكون روايات الاسرائيليين المتناقلة تذكر من ان نوحاً لعن كنعان. وقد يكون هذا الشعور المعادي للكنعانيين حمل كُتّاب سفر التكوين لتصنيف الكنعانيين برغم كونهم من الساميين الأصليين على أنهم من العائلة الحامية أو المصرية وليس من الساميين أو أبناء سام الجد التوراتي للعبرانيين والإسرائيليين.

وهكذا ومنذ العام ١٩٠٠ تقريباً كان عرقان قويان ومتجاوران، هم الكنعانيون الأصليون والعبرانيون-الإسرائيليون المهاجرون، يتجابهان على إمتداد قرون عديدة،في بلاد كنعان ويتنافسان للسيطرة على هذه البلاد المتناهية الصغر(٢).

(٢) وحتى اليوم وبعد أربعة آلاف سنة من المراحل التطورية والتغييرات المختلفة فإن المتنافسين الحاليين اي العرب والإسرائيليين، ورثة أو خلفة كنعاني وإسرائيلي العام ١٩٠٠ قبل عصرنا وعلى التوالي، هم من جديد في المواقع نفسها والأوضاع نفسها التي كانوا عليها في البدء. غير ان هناك فارقاً بسيطاً يزيد هذه العداوة القديمة جداً تعقيداً وحدة. ففي حين ان العبرانيين ـ الاسرائيليين وهم ساميون مثل الكنعانيين أتوا من الصحراء من ناحية الشرق وإستقروا في فلسطين الشرقية، فإن الاسرائيليين الحاليين هم غربيون أكثر مما هم شرقيون قد أتوا من البحر واستوطنوا الساحل الغربي والبحري من بلد كنعان القديم. فما يجري ليس كالسابق شجاراً عائلياً بين مجموعتين شرقيتين. فالاسرائيلي الذي يحاول اليوم الاستيطان في فلسطين هو في نظر العرب مستعمر غريب سليل الغرب الحديث.

II. عرق العبرانيين والآراميين وبلد منشئهم

إن المجادلات حول أصل العبرانيين الأولين ومهدهم، وعرضاً، مجانسيهم الآراميين لم تستنفد بعد بل على العكس فإنها تشهد اليوم اثارة جديدة. إذ أعطى فك رموز نصوص رأس شمرا حديثاً فضلاً عن النقوش الهيروغليفية الحثية الجديدة في آسيا الصغرى إهتماماً جديداً بهذا الموضوع القديم.

١ ـ قرابة أصلية بين العبرانيين والآراميين

تعتبر مرحلة مطلع تاريخ العبرانيين والآراميين الأولين أي الخابيرو والأخلامو غامضة جداً. فتلك الشعوب الرحل التي حملتها موجة إجتياح واحدة هل يعني ذلك ان اصلها ومهدها ايضاً واحد؟

من المسلم به تقليدياً ان العبرانيين والآراميين الأولين هم شعبان شقيقان، فرعان متزامنان، اشتقا من جذع سامي واحد. ودعماً لهذه الفرضية فإن سلسلة النسب الواردة في العهد القديم تقر بأن هبر (العبرانيين) وآرام (الآراميين) هما أخوان وإبنا سام بن نوح. من جهة أخرى وفي سفر تثنية الإشتراع يعلن يعقوب أو اسرائيل: «ان أبي (يعني أجداده) كان آرامياً رحّلاً».

لكن إعتراف يعقوب هذا يبطله تأنيب حزقيال الذي يذم اورشليم قائلاً لها: «إن أباك كان أموريا». ومن جهة أخرى فإن مدوني السلسلة النسبية في التوراة، كما رأينا، صنفوا الكنعانيين، مع أنهم ساميون، بين أبناء سلالة حام.

فهذه التناقضات التوراتية تدعونا لكي نتذكر بأن نصوص العهد القديم قد جُمّلت في عهد لاحق وأنه في ما خص السلسلة النسبية والقصص التاريخية فهذه الروايات لا مجال للقبول بها حرفياً.

«فعلى المؤرخ ان يحترس في تناوله إياها. وإن نقد التوراة... يظهر أن العهد القديم هو تجميع لروايات من عهود مختلفة جداً وضعت جنباً إلى جنب وليست مؤلفة، ثم عدلت في عهود مختلفة وأضيفت عليها مسحة كهنوتية»[3].

فإذا كانت القرابة بين الشعوب تستنتج من تشابه لغاتهم فلا بد ان نسلم بان الأراميين والعبرانيين هم من أصل سامي، ولكن العبرانيين أقرب الى الكنعانيين منهم الى الأراميين. فاللغة العبرانية، كما نعلم، وأسوة بالفينيقية، هي فرع من اللغة الكنعانية. ومن جهة أخرى تكشف نقوش بلاد ما بين النهرين وبدءاً من العام ٢٠٠٠ لنا ان الأخلامو ـ الأرامو والخابيرو ـ العبرانيين يشكلون شعبين او مجموعتين متميزتين.

فالفرضية الأكثر احتمالاً هي ان العبرانيين والأراميين الأولين الذين كانوا يشكلون مجموعتين مختلفتين تتحالفان للحرب والغزو كانت بينهما قرابة أصلية انعكست ذكراها في الأحاديث التوراتية. فآباء العهد القديم اختاروا زوجات نساء آراميات وهبر وآرام قريبان جداً من بعضهما في القوائم السلالية لأبناء سام بن نوح.

٢ ـ عرق العبرانيين والآراميين وموطنهم الأصلي.

هل كان الخابيرو ـ العبرانيون والأخلامو ـ الأراميون الذين وحوالي العام ٢٠٠٠ كانوا يجوبون البوادي السورية وما بين النهرية مجموعات سامية متحدرة من البدو الأصليين سكان الهضبة العربية؟ أم أنهم لم يكونوا سوى قبائل آسيانية أو شمالية طردت الى السهوب السورية والمابينهرية وحيث صاروا بلغتهم ساميين؟

أ ـ الأصل السامي ـ البابلي أو السومري؟

ساد الاعتقاد لردح من الزمن بأن بعض نصوص العهد القديم وأحاديثه هي من أصل أو إيحاء سامي ـ بابلي: التكوين والفردوس والطوفان وشجرة معرفة الخير والشر إلخ.... غير أن نصوصاً سومرية اكتشفت أخيراً أسقطت هذه الفرضية. إذ اتضح منها أن الروايات الميتولوجية السومرية في الألف الرابع تدرج المواضيع نفسها، على الأقل جزئياً في قصيدة الخلق والفردوس والطوفان والبحث عن شجرة الحياة.

فهل ان العبرانيين من أصل سومري؟ هذه الفرضية قد تكون محتملة. فمدينة

3 Moret, *Histoire de l'Orient*, II, p. 629.

أور التي نزح عنها ابراهيم وقبيلته هي مدينة سومرية قديمة. ومن جهة أخرى فإله البرهمانيين العبرانيين كان لا يزال خلال نزوحهم هو الإله القمر الإله الرئيسي وشفيع مدينة أور... وأخيراً تبدو هجرة ابراهيم وقبيلته الذين تركوا موطنهم في وقت حصل فيه الساميون على الهيمنة السياسية بفضل حمورابي معقولة لو صدرت عن مجموعة سومرية منهزمة، ومهانة وليس من قبيلة سامية تتمتع في بلاد سومر بنِعَم السلطة الملكية.

ب ـ الأصل السامي ـ الكنعاني؟

لإثبات القرابة بين الكنعانيين والفينيقيين والعبرانيين يستند البعض أولاً الى الروابط اللغوية. فاللغة العبرانية وكذلك الفينيقية، كما نعلم، هي إشتقاق معدل من اللغة الكنعانية. ولكن هذه الحجة لا تبدو مقنعة. فقد يكون العبرانيون الإسرائيليون بعد استقرارهم في كنعان اعتمدوا بكل بساطة اللغة المحلية اي الكنعانية التي سميت لاحقاً: العبرانية. فالقربى بين العبرانيين والكنعانيين ـ الفينيقيين ناتجة بالأحرى عن قواسم مشتركة وثيقة وتتجلى منذ زمن بعيد في الميتولوجيا ونظرية نشأة الكون لدى هذين الشعبين.

فالكاتب فيلون الجبيلي، كما رأينا، يروي لنا أسطورة سانمروم بطل صور في القديم البعيد، وهو صياد يلبس جلد الوحوش، على صراع مع أخيه أوسوس. إنها صورة المنافسة الأزلية بين الحضر المزارعين والبدو الصيادين والرعاة. إلا أن هذه القصة لها ما يشبهها في الأسطورة الاسرائيلية: إسحق الحضري على خصام مع أخيه عيسو الصياد المتوحش. وفي الروايتين الفينيقية والاسرائيلية، فالبدوي يحمل الاسم نفسه: أوسوس = عيسو كما أن له الشكل نفسه: رجل مرعب كث الشعر ويلبس جلد الوحوش. ومن جهة أخرى فنصوص رأس شمرا بحسب بعض الشارحين تكشف واقعاً مدهشاً: فقد يكون للفينيقيين والعبرانيين أبطال رمزيون مشتركون مثل: تارح وإبراهيم وكيريت.

إن قصائد رأس شمرا الفينيقية التي نظمت حوالي العام ١٤٠٠ أي قبل أكثر من ثمانية قرون هي من تدوين العهد القديم، بل إنها وضعت في عصر سابق لهذا التاريخ «إذ أنها تنقل روايات أصلية أقدم» (كونتنو). فهذه الأقدمية تحملنا على الإعتقاد بأن مؤلفي التوراة استوحوا من بعض الروايات الكنعانية القديمة بعد إندماج

الاسرائيليين بكنعانيي فلسطين. تارح، ابراهيم، قادش، ابطال وأماكن أسطورية كنعانية او فينيقية قد تكون على الأرجح نماذج أصلية لشخصيات وأماكن توراتية تحمل الأسماء نفسها. إن العبارات الشعرية العديدة التي تزين قصائد رأس شمرا والتي سوف ترد في العهد القديم تجعل هذه الفرضية أقرب الى التصديق.

وينصح كونتنو الكثيرين بالاحتراس عند إبداء رأي جازم في مسألة هامة كهذه حتى يتفق شارحو نصوص رأس شمرا حول المعنى الواجب إعطاؤه للمقاطع التي ترد فيها الأسماء التي نحن بصددها. فإذا كانت هذه الألفاظ أسماء نكرة لا أسماء علم فالأشخاص والأماكن التوراتية لا تعود تمت إليها. والحال ان بعض علماء اللغة ما يزالون يعتبرون أسماء العلم هذه على أنها مجرد أسماء نكرة.

ج ـ الأصل السامي ـ الصحراوي؟

إن الفرضية التقليدية والمقبولة عامةً هي أن أجداد العبرانيين والآراميين هم ساميون حقيقيون متحدرون من الشعوب الأصيلة المتنقلة في الهضبة السورية ـ العربية وهم يشكلون المجموعة الأساسية من الموجة السامية العتيدة التي ستنتشر في منتصف الألف الثاني في بلاد الهلال الخصيب.

إن هذه الفرضية تتعارض مع معنى إسم آراميين، كما رأينا، أي «أناس البلاد المرتفعة» أو الجبليين وهي تدل على سكنى الأراضي العالية مما يستبعد الصحراء والبلاد المنخفضة. لكن للصحراء هضباتها المرتفعة أيضاً فضلاً عن الجبال الأهلة كنجد مثلاً. والسهب الشرق أردني الذي قد يكون جاء منه الكنعانيون الأولون هو أيضاً منطقة أراضٍ مرتفعة كانت مكتظة بالسكان حتى العام ٢٢٠٠ وقد فرغت حوالي ذلك التاريخ بالذات.

إن فرضية موطن أو مهد شرق أردني أو جنوب فلسطيني تعطي تفسيراً مقبولاً لهجرة ابراهيم وقبيلته العبرية نحو كنعان بعد توقف في أور وهي هجرة لا تعدو ان تكون في حينها عودة لقبيلة سامية نحو ارض الجدود. وهذا يمكن ان يفسر أيضاً الروايات المشتركة بين العبرانيين ـ الاسرائيليين والكنعانيين ـ الفينيقيين.

بالفعل فإن معظم تلك الروايات والأساطير الواردة في قصائد رأس شمرا الفينيقية وفي التوراة العبرية تقع في صحراء قادش في النقب الموطن الأصلي للفينيقيين الأولين حيث إلتقوا واصطدموا للمرة الأولى بالقبيلة البرهمانية (حوالي العام ٢٠٠٠). ذلك ان قادش وتعني «المقدسة» كانت في ذلك العهد كالقدس

الشريف ومكة المكرمة فيما بعد مكاناً مقدساً ومكان لقاء وحج للقبائل البدوية كافة ولكل حضر العالم السامي المجاور.

وإن انتشار تلك الروايات والأساطير المشتركة سهلته الظروف الحياتية المماثلة والجيرة الحميمة والعشرة الطويلة في منطقة النقب هذه، وهي مزار ونقطة التقاء الطرق بالنسبة الى كل الشعوب السامية في سورية ـ فلسطين، في العصور التاريخية الأقدم (قبل العام ٢٠٠٠). لا ريب اننا نجد لدى مختلف الشعوب السامية لغات وروايات وأساطير إن لم تكن موحدة فهي متقاربة جداً بعضها من بعض، وهي التحديد للصفة السامية بالذات. وبخاصة بين شعوب السهوب السورية ـ الفلسطينية ـ من حضر وبدو وأنصاف بدو ـ هذه القربى في الثقافة والدين والتقاليد تتجلى بوضوح أكبر وتشهد على وجود روابط واتصالات اجتماعية أهم من المناطق الأخرى.

إن العرب العتيدين سوف يقرون بأنهم أيضاً من سلالة اسماعيل بن ابراهيم، وهذه الأسطورة الموروثة من الأجداد الأولين قد يكون هؤلاء استقوها من صحراء قادش المقدسة المتصلة بصحراء الحجاز العربية. وإذا كانت شعوب سامية اخرى متقاربة نوعاً ما لا تشارك في هذه الأساطير الموحدة المستقاة حول مزار قادش في النقب فيغلب الظن ان ذكرياتها لم تصل إلينا.

د ـ الأصل الأناضولي؟

وهناك فرضية جريئة لا بل ثورية تعطي اليهود أصولاً شمالية وبالأخص حثية أو أناضولية. وهذه الفرضية التي ليست بجديدة تستند الى أن بعض نصوص وروايات العهد القديم يعتقد أنها من أصل أو إيحاء حثي. إن فك رموز النصوص الفينيقية المعثور عليها في رأس شمرا حديثاً تعطي اليوم تلك الفرضية عناصر تجعلها معقولة. فنحن نعرف، فضلاً عن ذلك، أن نصاً عن نارامسين (حوالي ٢٦٠٠) يروي إنتصار ملك ما بين النهرين هذا على ملك من آرام في جبال طيبار قرب ديار بكر وأن الاراميين والعبرانيين هم موجة شعوب واحدة.

وفي مؤلفه: التوراة الكنعانية، وحول نصوص رأس شمرا يفترض هـ. دل مديكو «أن العبرانيين يشكلون بقية هذا الشعب الحثي الذي مضى العام ١٩٠٠ إلى إحتلال بابل» وأنه تحت ضغط غزاة آخرين هاجر الى فلسطين قاطعاً صحراء سورية.

ويضيف دل مديكو أنه وحوالي العام ١٤٠٠ «فإن روايات العبرانيين كانت قريبة... من مفاهيم الحثيين والمابينهريين وكل شيء يحمل على الاعتقاد بأنهم كانوا يتكلمون لغة متقاربة مع الهيفية (لغة النقوش الهيروغليفية الحثية الجديدة). وكما في هذه اللغة، فإن إلههم الرئيسي كان يدعى ياه أو ياهوا؛ وهم يعترفون ببعض تقاربات عرقية ولغوية مع الحثيين والهيفيين المقيمين في البلاد... فيمكننا اذن الافتراض بشكل محتمل جداً، بأن العبرانيين لم يكونوا في الأصل ساميين بل كانوا متحدرين من شعوب تتكلم اللغة الهندو ـ أوروبية ومن مجموعة كنتوم التي خضعت للتأثير السومري أكثر مما تأثرت بساميي ما بين النهرين. وإنهم لم يمتزجوا مع الساميين الا في مرحلة لاحقة لدى استيعابهم من قبل السكان الأصليين»[4].

هـ ـ الخاتمة

أياً كان الأمر حول هذه الفرضيات المتعددة وأيا كان الأصل العرقي ومهد عبرانيي إبراهيم فشعب إسرائيل العتيد، شعب داود وسليمان وخلفائهم وريث روايات إبراهيم ويعقوب ـ إسرائيل هو ثمرة وراثة معقدة يغلب فيها الأصل السامي ـ الكنعاني. «فالكنعانيون والحثيون والأموريون والفريزيون والهيفيون واليبوسيون» وسواهم شكلوا بامتزاجهم معاً شعب التوراة العتيد. هذا الشعب الخلاسي المستقر في المحيط الجغرافي الفلسطيني سيكسب شخصية وفرادة مميزتين هما حصيلة هذه البيئة الخاصة. فالطبع السامي ـ الكنعاني وبخاصة الفلسطيني هو الذي سوف يدمغ بسمته هذا «المزيج المستقر» الذي سيدعى: عبراني أو إسرائيلي.

«وعلى هذا، يلاحظ هـ. دل مديكو بنباهة «فرغم اجتياح البلاد (من قبل الاسرائيليين) فإن التاريخ الكنعاني هو الذي استمر فيها وحتى السيطرة الأشورية، أيام حكم ملوك يهوذا وإسرائيل الذين لم يكونوا دائماً من العبرانيين»[5]. فتحت نير الأشوريين ـ البابليين سيجسد هذا الشعب المركب بغالبية سامية-كنعانية وفلسطينية رد الفعل الإقليمي لدى ساميي بلاد كنعان وأمورو ضد أهل الفرات. وتحت السيادة اليونانية ـ الرومانية سيكون بطل الاستقلال القومي والمدافع عن الثقافة السامية والقومية الشرقية ضد الهيمنة الغربية.

4 H.E. del Médico, *La Bible cananéenne*, p. 14, 15, 16.

5 H.E. del Médico, *La Bible cananéenne*, p. 15.

وأما اليهود الذين يعيشون بعيداً عن البيئة الجغرافية الفلسطينية منذ تشتتهم فهم لا بل أكثر من أجدادهم، خلاصة امتزاج العديد من الأعراق. إن الأسباب أو العوامل التي تسبب، إن لم يكن وحدتهم الطبيعية أو العرقية، فعلى الأقل وحدتهم النفسية والإجتماعية،هي ذات طابع ديني وثقافي.